

المُمتَعُ

فِي شَرْحِ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ

تَأَلَّفُ

مُحَمَّدُ الْحَضِرِ الْأَنْدُونِسِيِّ

المُمتنع في شرح القواعد الأربع لأبي أحمد محمد الخضر الأندونيسي |

الطبعة الأولى:

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م



✧ مكتبة الخضر - أندونيسيا - بيكاسي.

✧ هاتف: +6285741741433

الْمُقَدِّمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.
أَمَّا بَعْدُ:

فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ النَّجْدِيُّ التَّيْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ
عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ
يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا
أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فَ(الْبَاءُ) لِلِاسْتِعَانَةِ، وَإِذَا جَعَلْنَاهَا لِلِاسْتِعَانَةِ
كَانَ التَّقْدِيرُ: مُسْتَعِينًا بِاسْمِ اللَّهِ أَوْ نَسْتَعِينُ بِاسْمِ اللَّهِ، وَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ
نَسْتَعِينَ بِهِ وَنَدْعُوهُ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٨٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ﴾ عَلَّمَ عَلَى الْإِلَهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَعْبُودِ بِحَقِّ دُونَ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سُورَةُ الْحَشْرِ: ٢٢]. وَهُوَ اسْمُهُ الْأَعْظَمُ، وَالِدَلِيلُ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ وَالتِّرْمِذِيُّ].

وَقَوْلُهُ: (الرَّحْمَنُ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَةٌ مِنْ أَوْصَافِهِ الْعُلَى، وَمَعْنَاهُ: الْمُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْحَدِيدِ: ٢٨].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: أَعْطَاهُمُ اللَّهُ ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لَا يَعْلَمُ وَصْفَهُمَا وَقَدْرَهُمَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى أَجْرٌ عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَجْرٌ عَلَى التَّقْوَى، أَوْ أَجْرٌ عَلَى امْتِنَالِ الْأَمْرِ، وَأَجْرٌ عَلَى اجْتِنَابِ النَّوَاهِي، أَوْ أَنَّ التَّشْبِيهَ الْمُرَادُ بِهَا تَكَرُّرُ الْإِيتَاءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. [تَبْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ: (ص: ٨٤٣)].

وَقَوْلُهُ: (الرَّحِيمُ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَةٌ مِنْ أَوْصَافِهِ الْعُلَى، وَمَعْنَاهُ: الْمُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الْوَاصِلَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سُورَةُ الدُّخَانِ: ٤٢]، الرَّحِيمُ بِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ.

قَالَ ابْنُ الْعَنَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: فَالرَّحْمَنُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، وَالرَّحِيمُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاصِلَةِ، فَإِذَا جَمَعَا صَارَ الْمُرَادُ بِالرَّحِيمِ الْمُوصِلُ رَحْمَتَهُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: ٢١]. [شَرْحُ ثَلَاثَةِ الْأُصُولِ (ص: ١٨)].

وَقَوْلُهُ: (أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، فَالْتَفْدِيمُ بِالِدُعَاءِ مِنَ الْمُؤَلَّفِ رَحْمَةُ اللَّهِ فِيهِ التَّطْيِيقُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٨٠]، وَدَعَا الْمُصَيِّفُ رَبَّهُ بِذِكْرِ ثَلَاثَةِ أَسْمَائِهِ: اسْمِهِ الْأَعْظَمَ (اللَّهُ) وَالْكَرِيمَ وَالرَّبَّ.

وَقَوْلُهُ: (الْكَرِيمِ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَةٌ مِنْ أَوْصَافِهِ الْعُلَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ نَبِيِّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [سُورَةُ النَّملِ: ٤٠].

وَقَوْلُهُ: (رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) فَالرَّبُّ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَةٌ مِنْ أَوْصَافِهِ الْعُلَى، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعِظْمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

وَقَوْلُهُ: (رَبِّ) مُعَرَّفٌ بِالْمُضَافِ إِلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا يُقَالُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ مَالِكُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سُورَةُ النَّملِ: ٢٦]، وَ(الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَقَوْلُهُ: (أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أَيُّ أَنَّ يُعِينَكَ وَيَنْصُرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مَوْلَاكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاغْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ٧٨]، وَالْمَوْلَى اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَةٌ مِنْ أَوْصَافِهِ الْعُلَى، وَهُوَ النَّاصِرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٥٠].

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: وَكُلُّ مَنْ وَلِيَ أَمْرًا أَوْ قَامَ بِهِ فَهُوَ مَوْلَاهُ وَوَلِيُّهُ. [التَّهَافُتُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ: ٣٦١/٩]، فَالْمَوْلَى وَالْوَلِيُّ اسْمَانِ وَصِفَتَانِ لِلَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سُورَةُ الشُّورَى: ٩].

وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: وَقَدْ تَخْتَلَفُ مَصَادِرُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، فَالْوَلَايَةُ بِالْفَتْحِ فِي النَّسَبِ وَالتُّصَرُّفِ وَالْمُعْتَقِ، وَالْوَلَايَةُ بِالْكَسْرِ فِي الْإِمَارَةِ، وَالْوَلَاءُ الْمُعْتَقُ وَالْمُؤَالَاةُ مَنْ وَالَى الْقَوْمَ. [التَّهَافُتُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ: ٣٦١/٩].

وَلَا تَحْصُلُ عِنَايَةُ اللَّهِ وَنُصْرَتُهُ لَكَ إِلَّا بَعْدَ اخْتِكَ بِالْأَسْبَابِ، وَمِنْهَا:

١. الدُّعَاءُ، كَمَا دَعَاهُ الْمُؤَلِّفُ هَا هُنَا، وَالْمُؤَلِّفُ دَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ لِمَنْ يَقْرَأُ هَذَا الْكِتَابَ أَوْ إِلَى مَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي ثَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».
[رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

٢. التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ
الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٩٦]. وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُتَمَسِّكِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ السَّائِرِينَ عَلَى مِنْهَاجِ التُّبُّوَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ
يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٧].

٣. تَرْكُ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَمُنَاطَرَتِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِّينَ أَتَّبَعَتْ
أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٢٠].

٤. الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجِدُ
أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ
إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، وَحَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ
مِمَّا سِوَاهُمَا». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَحَبُّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضُ لِلَّهِ، وَعَادٍ فِي اللَّهِ، وَوَالٍ فِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا
تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعَمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ
حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ. [رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ].

وَقَوْلُهُ: (وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ)، أَيُّ أَنْ يَجْعَلَكَ كَثِيرَ الْخَيْرِ وَالتَّفْعِ لِلْعَالَمِينَ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَوْلِ نَبِيِّهِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ الصِّدِّيقَةِ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٣٠ - ٣١].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: أَيُّ فِي أَيِّ مَكَانٍ وَأَيِّ زَمَانٍ فَالْبَرَكَةُ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي مَنْ تَعْلِيمِ الْخَيْرِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الشَّرِّ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَكُلُّ مَنْ جَالَسَهُ، أَوْ اجْتَمَعَ بِهِ، نَالَهُ بَرَكَتُهُ. [تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ (ص: ٤٩٢)].

فَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ حَضَرَتِ الْعَصْرُ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ غَيْرَ فَضْلَةٍ، فَجُعِلَ فِي إِنْاءٍ فَأُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ وَفَرَّجَ أَصَابِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى أَهْلِ الْوُضُوءِ، الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ].

وَالْبَرَكَةُ هِيَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ وَدَوَامُهُ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ قَيِّمٍ الْجُوزِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ. [بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ: ١٨٦/٢]. وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا رَبَّ الْعَالَمِينَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وَقَوْلُهُ: (وَأَنْ يَجْعَلَكَ مَنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ)، وَالشُّكْرُ يَكُونُ بِثَلَاثِ حَالَاتٍ:

١. لِسَانِ الْمَقَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ

يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ حَمِيْدٌ ﴿١٢﴾﴾ [سُورَةُ لُقْمَانَ: ١٢].

٢. الْعَمَلِ، وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ الْمَغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَّعَتْ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ

مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ].

٣. لِسَانِ الْمَقَالِ وَالْعَمَلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ

مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ سَبَأٍ: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٥٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ

اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ

فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ

تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ

هَرُولَةً». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ].

وَقَوْلُهُ: (إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ)، هُمَا صِفَتَانِ عَظِيمَتَانِ لِكُلِّ

مُؤْمِنٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ

خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ

أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ صُهِيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وَقَوْلُهُ: (وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ)، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٦٤].

وَكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ قَوْمَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَمْرِهِ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٩٠]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ يُؤُسُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٧].

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْحَرَّانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مُحْتَاجًا إِلَى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَنَفْسُهُ مُرِيدَةٌ دَائِمًا وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ يَكُونُ غَايَةً مَطْلُوبًا لِتَسْكُنَ إِلَيْهِ وَتَطْمَئِنَّ بِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ... -إِلَى قَوْلِهِ-: وَهَذَا حَالُ الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُذْنِبٌ خَطَّاءٌ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسَدِّي مَغَافِرَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ١٩]، فَبِالتَّوْحِيدِ يَقْوَى الْعَبْدُ وَيَسْتَعْنِي وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَبِالْإِسْتِغْفَارِ يَغْفِرْ لَهُ وَيَدْفَعْ عَنْهُ عَذَابَهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَلَا يَزُولُ فَقْرُ الْعَبْدِ وَفَاقَتُهُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ وَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ لَمْ يَزَلْ فَقِيرًا مُحْتَاجًا مُعَذَّبًا

فِي طَلَبِ مَا لَمْ يَخْصُلْ لَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٤٨]، إِذَا حَصَلَ مَعَ التَّوْحِيدِ الْإِسْتِغْفَارُ حَصَلَ لَهُ غِنَاهُ وَسَعَادَتُهُ وَزَالَ عَنْهُ مَا يُعَذِّبُهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. [مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (١/٥٦)].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنَوَانُ السَّعَادَةِ)، فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا حَدِيثُ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ائِمُّ اللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا». [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ].
ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ التَّمِيمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ:

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ إِطَاعَتِهِ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥٦]. فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَّارَةِ؛ فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَّارَةِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ، عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْلِصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ، الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٤٨].

وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

الشرح:

قَوْلُهُ: (اعْلَمْ)، وَالْمَقْصُودُ بِهِ تَنْبِيْهُ لِمَنْ يَقْرَأُ هَذَا الْكِتَابَ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ مُهِمٌّ جِدًّا، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ١٩].

وقَوْلُهُ: (أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَاطِنِهِ)، وَهَذَا دُعَاءٌ لِمَنْ يَقْرَأُ هَذَا الْكِتَابَ أَوْ إِلَى مَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِ بِأَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ أَنْ يَسْأَلُوهُ فِي كُلِّ صَلَاتِهِمْ بِهِ: ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ ۝ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [سُورَةُ الْفَاتِحَةِ: ٥-٧].

وقَوْلُهُ: (أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)، وَالْحَنِيفِيَّةُ هِيَ مِثْلٌ عَنْ كُلِّ ضَلَالٍ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۝ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ١٢٠-١٢١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٨١].

وَحَقِيقَةُ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ هِيَ الْوَلَاءُ وَالْبِرَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ [سُورَةُ الزُّحُرِفِ: ٢٦-٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلْعَدَوُةٌ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۖ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْتَحَنَةِ: ٤].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۖ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْتَحَنَةِ: ٦].

وَهَذِهِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِاتِّبَاعِهَا: ﴿ثُمَّ أُوحِيَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
۝﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ١٢٣].

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَنَا وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ إِلَيْنَا لِعِبَادَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۖ﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٢].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥٦].

وَقَدْ أَمَرْنَا بِعِبَادَتِهِ: ﴿وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ [سُورَةُ الْبَيِّنَةِ: ٥].
وَقَوْلُهُ: (فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ)، فَالْعِبَادَةُ إِذَا لَمْ
تَكُنْ مَعَ التَّوْحِيدِ فَإِنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، لِأَنَّ التَّوْحِيدَ شَرْطُ قَبُولِ الْعِبَادَةِ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُ
اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ۝ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٣٩-٤٠].

وَلِذَلِكَ لَا تَصِحُّ عِبَادَةُ أَحَدٍ إِلَّا إِذَا كَانَ مُوَحِّدًا مُخْلِصًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۝﴾ [سُورَةُ الْبَيْتَةِ: ٥].

فَالْعِبَادَةُ إِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ إِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَ الطَّهَارَةِ فَإِنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَنَاقِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وَأَنْتُمْ مُحْدِثُونَ ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ].

وَقَوْلُهُ: (فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ. فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا وَأَخْبَطَ الْعَمَلَ....)، قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْحَرَّانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: فَمَنْ لَمْ تَكُنْ نِيَّتُهُ صَالِحَةً وَعَمَلُهُ عَمَلًا صَالِحًا لِوَجْهِ اللَّهِ وَإِلَّا كَانَ عَمَلًا فَاسِدًا أَوْ لَعِبَرٍ وَجْهِ اللَّهِ، وَهُوَ الْبَاطِلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝﴾ [سُورَةُ اللَّيْلِ: ٤]، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ، مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ

أَعْمَلَهُمْ ﴿١﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [سُورَةُ النُّورِ: ٣٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٢٣]. [مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى: (١٧٠/٢٨)].

الْقَاعِدَةُ الْأُولَى

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقَرَّنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سُورَةُ يُنُوسٍ: ٣١].

الشرح:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أَيُّ أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بَارِئِكُمْ وَجْهَلِكُمْ؟ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: ٢١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنِّي أَرْكُبُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: ٢٣]، لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَهَ أُخْرَى، وَقَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْأِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ ﴿٥﴾ [سُورَةُ ص: ٥].

فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى أَحْوَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُقَرَّبُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلَمْ يَدْخُلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ عَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ١٠٥-١٠٦].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: فَهُمْ وَإِنْ أَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ لَجَمِيعِ الْأُمُورِ، فَإِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي الْأَوْهِيَّةِ اللَّهُ وَتَوْحِيدِهِ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى هَذِهِ الْحَالِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَحِلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ. [تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ (ص: ٤٠٦)].

القاعدةُ الثَّانِيَةُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٣﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٣]. وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةُ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةُ مُثَبَّتَةٌ. فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٤]. وَالشَّفَاعَةُ الْمُثَبَّتَةُ هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمُشْفَعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٥].

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: (الشَّفَاعَةُ)، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُقَالُ شَفَعَ يَشْفَعُ شَفَاعَةً، فَهُوَ شَافِعٌ وَشَفِيعٌ، وَالْمُشَفَّعُ: الَّذِي يَقْبَلُ الشَّفَاعَةَ، وَالْمُشَفَّعُ الَّذِي تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ. [النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ (٧/ ٢٣)].
وَقَوْلُهُ: (وَشَفَاعَةُ مُثَبَّتَةٌ) هِيَ الَّتِي تَوَافَرَتْ فِيهَا الشُّرُوطُ الشَّرْعِيَّةُ، وَلَهَا أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ:

١. إِذْنُ اللَّهِ لِلشَّافِعِ، وَدَلِيلُهُ كَمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٥]. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذُنُ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، وَلَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا تَوْحِيدَهُ، وَاتِّبَاعَ رَسُولِهِ. [مَدَارِجُ السَّالِكِينَ (١/ ٣٤١)].

٢. قُدْرَةُ الشَّافِعِ عَلَى الشَّفَاعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ [سُورَةُ الزُّحُرْفِ: ٨٦].

٣. إِسْلَامُ الْمَشْفُوعِ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ١٨].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ فَالْمُرَادُ بِهِ: الْكُفَّارُ، وَبُسْتَنَى مِنْهُمْ أَبُو طَالِبٍ، وَالدَّلِيلُ حَدِيثُ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعَتْ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَعْضُبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَخْضَاخٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ]، أَيْ: لَوْلَا بِشَفَاعَتِي لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

٤. الرِّضَا عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٢٨].

الرِّضَا عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ أَنَّ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَدَلِيلُهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنَّ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ

أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ].

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْحَرَّانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِذَا كَانَ اللَّهُ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى: فَمَا بَقِيَ الشُّفَعَاءُ شُرَكَاءَ كَشْفَاعَةِ الْمَخْلُوقِ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ. فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ يَشْفَعُ عِنْدَهُ نَظِيرُهُ أَوْ مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ أَوْ دُونَهُ بِدُونِ إِذْنِ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ. وَيَقْبَلُ الْمَشْفُوعُ إِلَيْهِ وَلَا بُدَّ شَفَاعَتُهُ: إِمَّا لِرَغْبَتِهِ إِلَيْهِ أَوْ فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ قُوَّةٍ أَوْ سَبَبٍ يَنْفَعُهُ بِهِ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَا يَخْشَاهُ وَإِمَّا لِرَهْبَتِهِ مِنْهُ وَإِمَّا لِمَحَبَّتِهِ إِيَّاهُ وَإِمَّا لِلْمُعَاوَضَةِ بَيْنَهُمَا وَالْمُعَاوَنَةِ وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ. وَتَكُونُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِ: هِيَ الَّتِي حَرَكَتْ إِرَادَةَ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ وَجَعَلَتْهُ مُرِيدًا لِلشَّفَاعَةِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لَهَا. كَأَمْرِ الْأَمْرِ الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي الْمَأْمُورِ. فَيَفْعَلُ مَا أَمَرَهُ بِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لِفَعْلِهِ. [مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى: (٣٨١/١٤)].

الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ عَلَى أَنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ عَايَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَتْ: ٣٧].

وَدَلِيلُ الْمَلَائِكَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٨٠].

وَدَلِيلُ الْأَنْبِيَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٥٧].

وَدَلِيلُ الْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ: ١٩-٢٠]، وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا هُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الْحَدِيثُ.

الشَّرْحُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ﴾، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ بَلِ اعْتَبَرَهُمْ مُشْرِكِينَ جَمِيعَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٣٦].

وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ عِبَادِ الصَّلِيبِ أَوْ مِنْ عِبَادِ الْأَرْوَاحِ أَوْ مِنْ عِبَادِ الْقُبُورِ كَالرَّافِضَةِ وَعِلَاقَةِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ تَتَصَرَّفُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَيَقْضُونَ الْحَاجَاتِ وَيَفْرَجُونَ الْكُرْبَاتِ وَيَنْصُرُونَ مَنْ دَعَاهُمْ أَوْ مِنْ عِبَادِ الْجِنِّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ كَانُوا رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سُورَةُ الْجِنِّ: ٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٥١ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سُورَةُ سَبَأٍ: ٤٠-٤١].

وَقَوْلُهُ فِي ذِكْرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٣٩]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٣٩]، يَعْنِي: حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكُكَ [تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ (٢/٤٠٧)].

الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الْأَوَّلِينَ، لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّحَاءِ وَجُلُصُونَ فِي الشَّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شَرُّهُمْ دَائِمًا فِي الرَّحَاءِ وَالشَّدَّةِ، وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: ٦٥].
تَمَّتْ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح:

الْمُشْرِكُونَ الْأَوَّلُونَ يُشْرِكُونَ فِي حَالِ الرَّحَاءِ، وَإِذَا مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ فَلَا يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرَوْنَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٥٣-٥٤].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بِيَمٍ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ٢٢-٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ عَائِيَّتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سُورَةُ لُقْمَانَ: ٣١-٣٢].

وَأَمَّا مُشْرِكُو هَذِهِ الْأُمَّةِ فَشَرَكُوهُمْ دَائِمًا فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ، فَإِنْ أَصَابَهُمْ خَيْرٌ فَرَزَعُوا إِلَى الْقَبْرِ ثُمَّ دَعَوْا صَاحِبَهُ، وَسَجَدُوا لَهُ، وَشَكَرُوا لَهُ، بَلْ دَبَّحُوا الذَّبَائِحَ لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ وَشَدَّةٌ فَرَزَعُوا إِلَى الطَّوَاغِيتِ أَوْ أَرْوَاحِ الْأَمْوَاتِ، وَدَعَوْهُمْ لِيَكْشِفُوا الْفِتْنَةَ وَالشَّدَّةَ، فَحَاطَهُمْ مِثْلُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ١١-١٣].

تَمَّتْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.